# مقـــدمة

لو استطعت أن أجعل عنوان هذا الكتاب كاملاً على الغـــلاف لأصـــبح (١١ سبتمبر – أيلول – ١٩٩١ أحداث لها ما قبلها ولها ما بعدها من دوافـــع وتـــداعيات عالمية وقومية وتربوية وثقافية) والواقع أن هذه اللحظة الزمانية وما جرى فى صـــبيحتها من أحداث رهيبة مفجعة ، إنما هى نتاج قنابل مدمرة صنعتها وألقت بها قوى الهيمنـــة الرأسمالية الجديدة ، متجسدة فى قطبها الأعظم إمبراطورية الولايات المتحدة وحلفائهـــا من مجموعة الدول الثمانية .

لم تقع أحداث سبتمبر باعتبارها أحداثاً مأسوية بصورة مفاجئة ، وإنما جاءت رد فعل لطغيان " القطيع الإلكترونى ذى الألف ذراع "، وطغيان على الدول النامية، ينهب مواردها ويقهر شعوبها ، ويوسع الفجوة بينها وبين دوله. كما أنها جـــاءت ذريعـــة لأخطر وأبشع أشكال التدهور فى الكيان العربي، غزواً وتهديداً وترهيباً وتشرذماً . لقد أصاب مجتمعات ما يسمى بدول الجنوب من مصادر الإحباط والشعور بالمرارة والعجز خلال طغيان الرأسمالية المتوحشة بقياد الإمبراطورية الأمريكية، ما لم يعد لها به احتمال.

لقد أدى اختلال موازين القوى ، وانتهاك الشرعية الدولية والتهديد بالعقوبـــات والحصار الاقتصادى إلى أن يصبح العالم غابة تحكمه شريعة الغاب . ولقد كانت منطقة ما يعرف بالشرق الأوسط ودولها العربية بالذات ، موقعاً استراتيجيًّا هامًّـــا بالنـــسبة للدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية ، خلال مختلف حقب التاريخ الحـــديث والمعاصر ، وخاصة بالنسبة لثرواتها النفطية . وارتبط بذلك تمكينها لإسرائيل ومساندتها فى اغتصاب أرض الشعب الفلسطينى وغيره من أرض الشعوب العربية الأخرى مما هو معروف ، انتهاء بغزو العراق تحت شعار مقاومة الإرهاب الدولى وتدمير أسلحة الدمار الشامل فى كل مكان ، والذى جاءت أحداث سبتمبر ذريعته القاطعة .

وفى مقالات هذا الكتاب ما يشير إلى ما حدث من اختلال القيم وانتهاك المواثيق وتفاقم مشاعر الظلم ، وصور العنصرية ، واستباحة المقدسات إلى درجة الإحساس باليأس لدى شعوب أهل الجنوب ، وبخاصة بين شعوب المنطقة العربية والشعوب الإسلامية. وقد أفضى ذلك وغيره من مشاهد العسف والعنت إلى إخراج تلك الحلقة الدرامية من ردة الفعل إزاء مآسى العولمة وفصولها الباغية . وباسم القضاء على الإرهاب المهدد لأمن الإمبراطورية الأمريكية وحلفائها يجرى التهديد بالغزو والسلاح وبالضغوط السياسية المباشرة والدبلوماسية ، وبالدسائس والتدخل للهيمنة على ما يجرى فى الساحة العالمية ؛ من أجل الحيلولة دون تحقيق المصالح الأمريكية ومصالح غيرها من الدول الرأسمالية المتحالفة معها فى الغرب والشرق .

وفى هذا الإطار تم صياغة ما عرف بالمبادرات السياسية والاقتصادية لإعادة خريطة منطقة الشرق الأوسط ولتدبير نمط الحياة السياسية والتربوية والثقافية لدى أفراده ومؤسساته . ولقد جاء مشروع الشرق الأوسط الكبير تجسيداً رهيباً لمفهوم استعمارى قديم ، تجلت بعض طروحاته منذ الخمسينيات فى مواجهه المشروع القومى العربى بدءاً من حلف بغداد والحلف الإسلامى . وبعد توقيع معاهدة السلام المصرى لإسرائيل عام ١٩٧٩ يظهر المشروع فى كتاب شيمون بيريز (الشرق الأوسط الجديد) ليشير بوضوح إلى ضرورة دخول إسرائيل فى هذا السياق السياسى الاقتصادى . وعلى حد تعبير بيريز تتكامل فى هذا المشروع وفى سوقه الثروات العربية مع العقل الإسرائيلى وثرواته التكنولوجية والعلمية .

وتتوالى فكرة التجمع الشرق أوسطى وسوقه بصورة مستمرة وملحة فى زخم مشروعات السلام العربى الإسرائيلى ، وفيما جرى حولها من اتفاقيات منذ مؤتمر مدريد ١٩٩١. واحتد الزخم الضاغط بعد حرب الخليج الثانية عام ١٩٩٢ لتشهد مؤتمرات القمم الاقتصادية الدولية ، التى عقدت فى قلب العواصم العربية فى الدار البيضاء وعمان والقاهرة والدوحة.

وإذا كان الأمر قد انتهى بتلك الطروحات إلى صيغة معدله تعرف اليوم باسم مبادرة الشرق الأوسط الكبير وشمال إفريقية صاغتها الدول الثمانية بقيادة أمريكا

(جورجيا ٢٥ يونيه ٢٠٠٤) ، إلا أن النوايا الحقيقة تظل كما هى ، تدجين الأوضاع لتكون فى خدمة المصالح الأمريكية والغربية والإسرائيلية فى شقها السياسى ، سواء كان منح السيادة للعراق وللعراقيين مع بقاء قوات التحالف (٣٠يونيه ٢٠٠٤) أو فى تأييد مشروعات شارون وخارطة الطريق فى تسوية القضية الفلسطينية ، أو فى بروتوكولات الاتفاق بالنسبة للسودان . والحاصل هنا تطابق الرؤية الأمريكية وسياساتها مع الرؤية الصهيونية تحت شعار مقاومة الإرهاب، ونشر النظام الديمقراطى فى إرجاء العالم العربى، ولإقرار حقوق الإنسان ، وأن استدعى ذلك قتل مئات الآلاف من هذا الإنسان، وهدم منازله وتشريده واغتياله ، ونهب كل ثروات مجتمعه .

وفى الجانب المجتمعى المرتبط بالقضاء على مصادر العنف والإرهاب وكراهية الهيمنة الإمبراطورية الأمريكية ، فإن المبادرة تقوم على حزمة من الأفكار متمثلة فى إرساء مقومات الديمقراطية ، وتعديل التوجهات والقيم الثقافية، والوشائج الوطنية والعربية والخصوصيات الحضارية والهوية الذاتية فى المنطقة العربية . ومن خلالها جمعيًّا تغيير ما يمكن تغييره من القيم والمعتقدات الإسلامية ، التى تظل فى دعاواهم مولدةً للإرهاب وبخاصة من خلال النظام التعليمى .

وقد يقتضى تنفيذ تلك الحزمة من التغيرات التدخل بالغزو والاحتلال والقتل والتعذيب وامتهان القيم العربية والإسلامية واغتصاب النساء وغيرها من شواذ السلوك التى كشفت عنها فضائح سجناء (أبو غريب) . وقد يتم التهديد العسكرى أخيراً من خلال قوات حلف الأطلسى كما فى مشروع المبادرة ، أو من خلال جزرة تافهة كتقديم معونات وخبرات دولية لضمان تنفيذها . ومما يستحق الالتفات أن تلك المبادرات والبرامج لتأسيس الديمقراطية فى الأقطار العربية قد أحدثت أصداء وتموجات حقيقة فى المجتمعات العربية ، مع تباينها بين الإذعان والدفاع ، وبين الاستجابة الظاهرة أو المستترة ، وبين المقاومة الحقيقة أو المقاومة اللفظية .

وقد استند بعضها إلى شعار أنه لا وصاية ولا تدخل من الخارج ، وأن كثيراً من مشروعات الإصلاح الواردة فى المبادرات إنما هى مشروعات بدأتها الدول العربية فعلاً سواء فى التعليم أو الثقافة أو تجديد الفكر الدينى ، وأنها سوف تواصل تطوير تلك المشروعات والبرامج فى ضوء رؤيتها وأوضاعها وإمكاناتها الخاصة . لكننا على المستوى

الواقعى نلحظ كثيراً من الاستجابات التى قد تبدو كما لو كانت نابعة من منطلقات وطنية ، إلا أنها فى حقيقتها تمثل استجابات شكلية لتلك الضغوط الخارجية . ومن بينها ما تم من مراجعة للمناهج التعليمية فى كثير من الدول العربية ، ومنها ما ارتبط بقضية المرأة وحقها فى الانتخابات تصويتاً وترشيحاً ، ومنها ما دعا إلى تطوير الخطاب الدينى، ومنها ما جعل التعليم باللغة الإنجليزية فى المؤسسات الجامعية ، ومن بينها كليات إعداد المعلم بعد أن كانت باللغة العربية .

ومما يستحق التنويه هنا أن بعض الأقطار العربية قد التزمت بكافة الشروط الأمريكية وأحدثت تغييرات تبدو جذرية فى هذا الجانب الديمقراطى والثقافى والتعليمي، مفاخرةً بأن ذلك سوف يكون نموذجاً لبقية الأقطار العربية، وأن ما تم قد جرى قبل مبادرات الإصلاح الأمريكية ، مع أنه يمثل مفارقة تامة مع أحوالها قبل سنوات معدودة من بداية ضغوط المبادرات . ويدور النقاش حالياً حول خصخصة أجهزة الإعلام وبخاصة قنواته التليفزيونية والفضائية . وأخذت ظاهرة تشكيل لجان ومجالس حكومية لحقوق الإنسان إلى غير ذلك من المؤسسات الديمقراطية شكلاً دون محتوى . بيد أن سيف المبادرات الذى أسلطته قوى الهيمنة قد واجه مقاومة شديدة من كثير من شرائح المجتمع ، وخاصة من جماعات المثقفين والصحفيين ووسائل الإعلام ومن علماء الدين وأساتذة الجامعات .

إن قضايا التطوير والتغير السياسى والاقتصادى والتربوى والثقافى كانت مطروحة باستمرار من قبل تلك الجماعات والهيئات والأحزاب ومؤسسات المجتمع المدنى . وقد تلتقى فى مبادئها مع تلك المبادرات الأجنبية، لكنها ترى فى الوقت ذاته مفارقة – بل تعارضاً أساسياً – معها فى الدوافع والغايات، حيث تتفاوت المصالح فى نهاية التحليل بين مطامع الرأسمالية المتوحشة فى موارد الشعب ، وطموحاته فى البقاء والنماء والحرية وكرامة الوطن والمواطن.

وفى مبادرة حزمة الديمقراطية الأمريكية ، تجد الأقطار العربية نفسها فى إطار شرق أوسط كبير ، يمتد من أفغانستان وباكستان وإيران وتركيا وأقطار المشرق العربى ، وفى القلب من هذه الدول إسرائيل بعنصريتها ومطامعها الممتدة من النيل إلى الفرات .

وتنفصل الدول العربية فى الشمال الأفريقى بكيان مستقل فى هذه الخريطة الجديدة ، كما تقتطع منه دولة كالعراق بعد أن تحررها قوات التحالف ، ويتم اقتطاع السودان واليمن ، والصومال وجيبوتى من مجموعة الدول الأعضاء فى الجامعة العربية . وتتسع أطماع المبادرة الأخيرة حيث لا يقتصر على مجرد السوق والبعد الاقتصادى بل تمتد إلى الأبعاد السياسية والاجتماعية والثقافية والتعليمية . ومن ثم يصبح مشروعاً متكاملاً لا يقتصر على إعادة صياغة الخريطة ، وإنما صياغة العقل والقيم ومعانى الحياة ورموزها التى شكلتها الحضارة العربية الإسلامية عبر آلاف السنين .

وهذا يعنى ذوبان الوطن العربى والأمة العربية ، وكل وشائج القومية العربية والانتماء العربى فى محيط متباين فى ثقافته ولغاته وأعراقه ودياناته وبذلك يتداعى وينهار تاريخ طويل عريض - بمده وجزره - حتى منذ التاريخ العربى الحديث - من التضامن والتعاون بين شعوب الأمة العربية وجامعتها العربية . ويبدو للمتأمل لتلك المبادرة أنها موجهة بالذات للدول العربية وإلى مزيد من التدخل فى شئونها ، على الرغم من وضعها فى إطار الشرق الأوسط الكبير أو الموسع ، حيث تشير تفسيرات نمطها الديمقراطى إلى الاحتذاء بتركيا فى مسيرتها السياسية . هذا من ناحية ، يضاف إليها من ناحية أخرى أن المشروع لم يمس فى توجهاته بأية إشارة تتصل بإسرائيل المحتلة لأراض عربية ، " لأنها مجتمع ديمقراطى حر يقاوم الإرهاب " . ويتم التدخل - حسب المبادرة - بالتغلغل بموافقة الدول أو دون موافقتها ، وإن جاء ذلك فى الصيغ الأخيرة للمبادرة من قبل ( المستتر وجوياً) .

ولا يخفى على كل لبيب أن هذا الكيان الأوسطى الجديد سوف يصبح بالضرورة ذريعة لتطبيع الدول العربية لعلاقاتها الرسمية والاقتصادية والتجارية والثقافية والتعليمية مع إسرائيل ، وفى تسوية جوهر الصراع العربى الإسرائيلى تسوية ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب للشعوب العربية . وسوف تحقق أمنية بيريز حين دعا فى كتابه إلى شرق أوسط جديد ، يتم فيه التعاون فى إنتاج برمجيات علمية يتم تداولها فى مختلف مدارس المنطقة العربية . وقبل المبادرة وقبل إحداث ١١ سبتمبر كما بعدها ، جرى

عقد اتفاقيات الشراكة الأمريكية والأوربية ، وخاصة فى مجال التعليم من أجل تحسين نوعية التعليم وتوفير المنح والقروض لتدريب المعلمين وللقيادات الإدارية والتربوية مع الاستعانة بالخبراء الأجانب . وفى معظم الحالات كانت الجامعة الأمريكية فى القاهرة شريكا رئيسياً فى تولى مهمات التدريب ، كما كان خبراء البنك الدولى والاتحاد الأوربى شركاء فى تلك المهمات ، وفى غيرها من مهمات تطوير التعليم الجامعى وما قبل الجامعى.

أضف إلى ذلك أن (هوجة التدريب) كانت تسند أحياناً إلى شركات أجنبية بها بعض المتخصصين من المصريين . ولقد نما إلى علمى أن فى بعض مواقع التدريب كان يتم اختيار بعض المشاركين من المصريين لكتابة تقارير سرية عن بعض الشخصيات المتميزة ورفعها إلى الهيئات المانحة ، ويعلم الله المقصد الحقيقى من تلك التقارير . ومن بين تلك المحاولات للتدخل والتوغل فى مواطن التأثير فى السياسة التعليمية وعملياتها عرض القيام ببحوث تتصل بتفاصيل العملية التعليمية ، وما يجرى فيها من علاقات فى داخل المدارس أو الجامعات أو ما يتصل بما عرف باسم تجارب اللامركزية فى التعليم، ودعاوى تمكين المؤسسات التعليمية من التطوير الذاتى واستقلالية التصرف . وفى جميع هذه المهمات والمشروعات كان الكرم الحاتمى يجتذب بعض الخبراء والأساتذة المصريين ، لما تقدمه من مكافآت سخية يصعب مقاومتها لدى كثير من ذوى الدخل المحدود وغير المحدود .

وإذا كانت المعونات والمنح والقروض من أجل إصلاح التعليم يتم تقديمها من خلال الدعم المالى للحكومات ، إلا أن النصيب الأوفر كسياسة مطردة سوف يوظف ويمول الجمعيات الأهلية والمنظمات غير الحكومية للقيام بكثير من المهمات التعليمية فى التدريب أو البحوث ؛ لأنها قد تكون أكثر مرونة فى تحقيق التوجهات الأمريكية والأوربية ، وبخاصة فى تدريب النساء على شئون إدارة مؤسساتها ، أو فى تشجيعهن على ممارسة حقوقهن فى العمليات الانتخابية ، والمطالبة بالوظائف القيادية فى الأجهزة التنفيذية . ولعل كثيراً من هذه قضايا حق وإنما يراد بها باطل ، وهو تكوين قوى

ومؤسسات فى داخل المجتمع للانتماء والمساندة للتوجهات المصالح الأجنبية ، والانصراف عن الانتماء الحقيقى للدولة ، حيث تكثر الغنائم والفرص والكسب الأكبر فى خارجها .

وفى جميع التوجهات العولمية بعد أحداث سبتمبر أو قبلها تعلو معزوقة أهمية القطاع الخاص والمجتمع المدنى فى تحقيق التنمية ، وأن على المعونات الأجنبية أن تتجه إليهما ، وإلى نشر الفكر والثقافة الديمقراطية الأمريكية ، التى يقتضى فرضها عن (طريق الاختراق الخشن أو التغلغل الناعم) حسب تعبير أحد كبار الاقتصاديين . لذلك امتدت يد التغلغل إلى الصحافة وأجهزة الإعلام ، وجرى اختيار ممن يطلق عليهم صحفيون (مستقلون) للتدريب فى الداخل أو فى الولايات المتحدة .. هذا فضلاً عن تبادل الزيارات للإطلاع على دور الصحافة والمجتمع المدنى حيث توجد قبلة الديمقراطية . والأعجب المؤسف أن يتم زيارات لبعض اللجان البرلمانية ووفود القيادات التنفيذية بتمويل من المعونة الأمريكية أو من اتفاقيات الشراكة .

ومع تآكل مستوليات الدولة وتقليص سيادتها ، سوف يقوم أصحاب المبادرة بتولى أمور الصالح العام ، وهم يهدفون بذلك إلى جانب التطلع إليهم وبخاصة من أرباب السوق الطليق وعملائه بصرف النظر عن المطالب الحقيقية للصالح العام لمجموع الشعوب .

كذلك تشمل الرؤية الإمبراطورية الزعم برعاية مصالح الأقليات المهدرة فى نظرهم ، وتحت شعار الديمقراطية وحقوق الأقليات . وبهذه الذريعة لن تقتصر السياسات على إذابة الوطن العربى فى محيط الشرق الأوسط الكبير ، وإنما سوف تتفتت مقومات الوحدة الوطنية وتنمو النعرات الطائفية والمذهبية والعرقية ، وتضطرب القيم الثقافية المشتركة وتخلخل وتتناقض وتناحر ، ومعها كل المؤسسات الثقافية والتعليمية ، بحيث تتشرذم العروة الوثقى ومعانى العروبة والأمة العربية ؛ لتصبح جماعات متنافرة ، وكل قوم فى فلكهم ومصالحهم يسبحون .

وبذلك يتدهور أهم رأس مال عربى ، وأقوى رهاناتنا فى البقاء والنماء. وواجبنا القومى المقدس أن ندرك قواعد اللعبة العالمية ؛ من أجل كل الحرص على كل ما بقينه

الوطنية والعروبة من قيم وممارسات وروابط فى مواجهة كل الضغوط أو المدخل الخشنة أو الناعمة .

وفى كتابات بعض مفكرى الغرب مع إطار العولمة والشرق أوسطية ، لن يكون لمشاعر المواطنة والولاء للوطن أو الانتماء القومى لقيم ثقافة العروبة والعقائد الدينية ، وخاصة الإسلامية منها ، أهمية تذكر ، بل سوف تنكر. وإذا كان للإطار السياسى وعولمة السوق دور فى تحقيق هذا التوجه فإن دوراً كبيراً فى ذلك المسعى سوف ينـاط بالإصلاحات التعليمية والثقافية والإعلامية . ويتساءل الإنسان العربى إذ ذاك عن هويته ، هل هو مواطن شرق أوسطى أم مواطن عولمى ، أم مواطن سوقى ، أم أنه مجرد مقيم على الأرض الأوسطية ، أم أنه مغترب عن ماضيه وحاضره ، دون هداية نحو مستقبله ، أم أنه فرد يحمل فى عقله وبين جنباته مشروع مهاجر إلى أرض الأحلام الرأسمالية ؟ ومن المؤلم أن نسمع هذه النغمة الناشزة من بعض مثقفينا من أنصار العولمة والداعين إلى ثقافة السلام .

ومما هو جدير بالالتفات هنا أيضاً أن مطلب السلام الذى ننشده وينشده العالم كله ، قد انفصل عن مطلب العدل . لقد كنا دائماً نردد فى إيمان بأننا ندعو إلى أن يستقر السلام القائم على العدل فى حل القضايا العالقة مع الغرب ومع إسرائيل . ولعل من أهم المخاطر الثقافية ما قد ينشا من صراع وجود .. لا مجرد وجود بين الثقافتين العربية والصهيونية المتجسدة فى الاستهانة بالعرب من قبل شعب الله المختار .

ويتضح هذا الاستعلاء وإنكار قدرات العرب على التنمية الذاتية والإسهام فى إثراء الحضارة الإنسانية ما يشيع فى الكتب المدرسية المقررة فى مواد التاريخ والجغرافية فى المدارس الإسرائيلية وكما يتجلى فى نصوصها . هذا فى الوقت الذى ترى المبادرات الأمريكية ضرورة تدخلها فى تطوير مناهج اللغة العربية والتربية الدينية والمواد الاجتماعية ، باعتبارها مصادر مولدة لمظاهر العنف وكراهية حضارة الغرب . والمطلوب فى نهاية المطاف أن تتسق وتتصالح الثقافة العربية مع الإيديولوجيا الصهيونية والغربية ؛ من أجل أن يسود الاستقرار فى خريطة الشرق الأوسط الكبير .

والحاصل أنه فى وسط عواصف المتغيرات التى تثيرها العولمة ، وذروتها مشروع الشرق الأوسط الكبير بالنسبة لوطننا العربى ، تحتل قضية المواطنة موقعاً وتحدياً حرجاً وخطيراً ، كما أشار إليه د. حسين كامل بهاء الدين فى كتابه ( الوطنية فى عالم بلا هوية). ويطرح هذا التحدى نفسه متمثلاً فى هدف التعليم العربى وغاياته الكبرى ، ويجرى التساؤل حول القضية المحورية فى تعلمينا ، كما يتجلى فى تطوير المناهج ؛ حيث يتم التركيز على مهارات اللغة الإنجليزية والتعامل مع الحاسوب ، والعلوم الطبيعية والرياضيات ، والمبالغة المفرطة فى جعل التعليم مرتبطاً باحتياجات السوق العولمية ، وإشاعة قيم السلام والتسامح وحوار الحضارات واحترام الرأى والرأى الأخر ونبذ التعصب فى مضامين المناهج . وإذا كانت كل هذه الهموم قضايا حق ، إلا أنه من الضرورى الالتفات إلى سياقاتها الكبرى من سياسية واقتصادية وثقافية ؛ مما تفرضه العولمة ومشروع الشرق الأوسط . ويتمثل ذلك فى محاولة تنميط الثقافات فى قالب التحديث والتقنية بينما محتواه الخفى (أمركة التعليم) من خلال إطفاء أية جذوة للاعتزاز بالتراث الحى أو تاريخ النضالات الوطنية ، أو الوشائج والروابط القومية العربية . ومن ثم يجيئ التركيز على مهارات الفرد ومطالب السوق العالمية التنافسية ؛ أى تكوين فرد عولمى سوقى صنع فى مصر، أو فى الأردن ، أوفى السودان ، أو فى أى قطر عربى آخر. ومن ثم يتجه ولاؤه الأول والأعمق لمواقع عمله فى الشركات المتعددة الجنسية والبنوك الأجنبية ومشروعاتها الاستثمارية .

ومن المفارقات فى السياسة الأمريكية التى تحاول المبادرة الأوسطية تشكليها تكوين هذا النمط العربى (المتأمرك) ، الذى تتآكل وتصدأ مشاعره الوطنية وهويته الثقافية فى الوقت الذى يشحذ فيه فى القطب الأوحد قواه التعليمية والإعلامية والسياسية ، معلناً آيات عظمة المواطن الأمريكى ، ورسالته الحضارية ، ودوره فى نشر الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان !! ومن آيات ذلك على حد تعبير بوش الكبير والصغير (نحن أمة مختارة علينا أداء رسالة الحق والفضيلة فى هذه الأرض) ، ويحضرنى هنا المثل العامى الذى يجسد هذه المفارقة فى موقف الولايات المتحدة من قيمة الوطنية : (اسمع كلامك أصدقك ، أشوف أفعالك استعجب) .

ونظل نتساءل لماذا تَعدُ مبادرة الشرق الأوسط الكبير بإنفاق ملايين الدولارات من المنح والمعونات لتشجيع القطاع الخاص والمدنى فى التعليم وفى غيره من الأنشطة الإنتاجية والخدمية ، وبخاصة فى مجالات التدريب وإنشاء المدارس والجامعات : أى تدريب يريدون ؟ إن علينا نحن أن نحدد التدريب المطلوب حتى لا تنفرد بـه مؤسساتهم وخبراؤهم وشركاتهم الآخذة فى الانتشار ، وأدعو دائماً إلى عدم التعمية أو التجاهل فى توصيف المنشود من عمليات التدريب ؛ حتى لا تندس فيها أهداف غير معلنة . وهذا يعنى أن كل برنامج تدريبى ينبغى أن يدلنا بوضوح على الجديد – مضموناً وفكراً – بما يريد أن يدرب عليه . وإذا لم يحدد لنا هذا الجديد فى مقاصده ، ومن الذين يتولون القيام به ، فلا داعى له . والواقع أن هذا الغموض مما تتعرض له كثير من برامج التدريب التى غدت (موضة) – وليست حاجة – فى مجال التعليم وفى الإعلام وفى الإدارة وفى غيرها من مرافق المجتمع ومؤسسات الدولة . كذلك تَعدنا المبادرة بالمنح والمعونات فى بناء المدارس : أى نوع من المدارس ؟ هل هى مدارس تركز على مهارات العولمة والسوق متجاهلة قيم المواطنة ؟ وهل هى مدارس للصفوة القادرة على دفع مصروفات باهظة لتعليم أبنائها وبناتها ؛ لتكوِّن عملاء وسماسرة لتوجهات العولمة ومشروعاتها ؟

ولعله يكفينا حالياً ما أخذ ينتشر من المدارس الأجنبية والجامعات الأجنبية (فرنسية ، glhkdm ألمانية ، بريطانية ، كندية إلخ..) تحت ستار تحسين التعليم العربى وتطويره : فى أى اتجاه ؟ وفى هذا السياق أيضاً ينبغى أن نضع معزوفة أولئك الذين يدعون إلى إلغاء مجانية التعليم فى مختلف المهرجانات وقصرها على مرحلة التعليم الأساسى . وتزدحم الهواجس وتتصارع الأفكار فى الداخل والخارج حول إمكانية تعلم العلوم والتكنولوجيا باللغة العربية ، بل وتتعدى ذلك فيما يجرى من دراسات متصلة بمحور التعليم والثقافة فى مراكز البحث الأمريكية حول تحرير اللغة من إشكالها التقليدية والتخفيف من مضامينها الدينية والحضارية والعربية ، وبخاصة مع انتشار لغة الإنترنت وكلها مواقع لطمس الهوية العربية.

ومن الواضح أنه لن تتوقف المحاولات هنا وهناك ، ومن هنا وهناك ، لاختراق مختلف الجبهات من قوى الإمبريالية الجديدة وذراعها الصهيونى لإذابة مقوماتنا الثقافة

والتربوية ، والتى نسعى جادين ، وبجدية أكثر وعزيمة أقوى وفى تواصل متطـــرد ، فى الالتزام بمطالب التحديث من لحمتها وفى مصادر المعرفة والثقافة ، وفى سداها ، وبذلك تترسخ قيم المواطنة والانتماء العربى فى إطار حركة التحرر والتغيير الديمقراطى . وعلى حد تعبير المفكر التربوى الجاد ، محسن خضر (إن المسألة هى قدرة الثقافة القومية على بلورة مشروع ثقافى جديد...باعتبار أن الثقافة القومية العربية هى عنصر التوحد القومى العربى الأساسى فى هذه المرحلة بالذات ، وهى التى منعت العرب حتى الآن من الانهيار الكامل واليأس والإحباط ، وهى التى ما تزال تحمى الروح العربية مـــن الاستـــسلام الكامل للعدو القومى الصهيونى والقوى الإمبريالية الداعمة له).

وحين نتحدث عن الدفاع عن ثقافتنا وخصوصية أحوالها ، إنما نتحـــدث عـــن معطيات مشـــتركة متجسدة فى مؤسســـات وأفكار وقيم ومنجـــزات وإحباطـــات وانتصارات ، تمثل الخامات فى إطار الهوية التى أودعها التاريخ فى وحركته، وظلت حية فى ذاكرة الأفراد والجماعات . وهى ثقافة تجمع فى إطار الهوية والمواطنة ما فى المجتمـــع من تناقضات وتوازنات ، وما فيه من تمايز وتواصل ، وتباين وتفاعـــلٍ . وفى اتحـــاد مركبها المشترك نتحدث عن الهوية والخصوصية القومية العربيـــة . والواقـــع تاريخيًّـــا واجتماعيًّا أن مضمون الثقافة وإطار الهوية حقيقة موضوعية متعددة الإبعاد والمكونات: نفسية ، مادية معنويًّا ، حياتيًّا ، رمزيًّا دينيًّا . وهى فى الوقت ذاته مركـــب مفتـــوح عرضة للتحول بفعل الأحداث ، التى يضطرب فيها وإلى التغير فى فواعل ذلك التحول، التى قد تكون داخلية أو خارجية أو مزيجاً منهما .

وما أشرنا أليه من ضرورة بلورة ثقافة جديدة متجددة هو قدراتنا نحن علـــى أن نصنع ونطور هذه الثقافة وإطار هويتها ، لا أن ندع غيرنا يصنعها لنا، حيـــث نقـــف متفرجين ضحايا ، مرددين المقولة الغنائية (لا تقل شئنا لكن الحظ شاء) وهنـــا لـــيس هناك حظ ، وإنما أمامنا وبيننا فعلاً خطط وآليات ووسائل فى مبادرات نعلمها وندرك مخاطرها . وهذا مأزق لا يتطلب مجرد القول بأننا لا نريد وصاية أو تدخلاً فى شئوننا ، وإنما نريد مناعة ودفاعاً ووقاية ومقاومة لما يراد بنا من سوء حال . علينا أن نـــصارح

أنفسنا،أننا فى حاجة إلى بلورة ثقافة جديدة ، وتطوير تعليم مؤسس على المعرفة العلمية والتكنولوجية ، ومهارات اكتسابها واستيعابها وخلق معرفة جديدة ومتجددة منها ، كما يشكل النحل العسل من مختلف الزهور التى يمتص رحيقها ، لا كما ينسج العنكبوت خيوطه من داخله شاحبة واهية ، أو كما يجمع النمل من فتات ما يراكمه بغريزته ومما هو موجود حوله ليدخره . وفى الوقت ذاته نحرص على ألا نستهدف فى تعليمنا تكوين مجرد عمال مهرة أو مهنيين فنيين فحسب ، لكننا ننشئ مواطنين مثقفين واعين بحقوقهم وواجباتهم الوطنية والقومية والإنسانية ، معتزين بما لديهم من قيم حية ، وبقدراتهم على تطوير فضائهم الثقافى ، تحديثاً وتجديداً وازدهاراً .

**أما بعد :**

لقد جاءت مقالات هذا الكتاب من بين هموم أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، مثيرة لما قبلها ولما بعدها من شئون وشجون . حاولنا فيها تشخيص مخاطرها العولمية ، وبيان زيف ادعاءاتها وشعاراتها ومبادراتها ، من قضاء على الإرهاب الدولى ونشر الديمقراطية ودعم حقوق المرأة وإشاعة السلام وتحقيق أمن إسرائيل وحماية الحضارة الغربية . وهذه الدعاوى استمرار لا يقل دهاءً وبشاعة أو استغلالاً لحقوق الشعوب عما كانت تدعيه صيغها الاستعمارية القديمة التى تلونت كالحرباء فى خداع مظهرها حسب متغيرات العصر ومطالب استتراف موارد الشعوب . وفى أفكار هذه المقالات محاولة لاستكشاف ما تطرحه الأدبيات السياسة أو الاجتماعية أو الثقافية أو التربوية – عربية وأجنبية – من غوائل الرأسمالية المتوحشة ، ومنطق هيمنتها الذى لم يتغير كثيراً إلا فى إشكاله وأدواته واستراتيجياته . ولا عجب فى أن يطلق ناعوم تشومسكى عنوانًا لأحد كتبه الحديثة : النظام العالمى : قديم أم جديد ، مشيراً إلى أنهم يخدعوننا بتسميته الجديدة ، فى حين أن شيئا لم يتغير فى حقيقة مقاصده ، خصوصاً بعد أن تفردت الولايات المتحدة الأمريكية بالسيطرة على مقدرات هذا العالم ، ونصبت شراك الأسر والإفقار لمعظم سكان هذا الكوكب ، وإذابة خصوصياتهم وصبها فى قالب (الأمركة) وصياغة عالم (ماك) .